

## رام الله: ديمغرافيا النكبة

لوزية بزار \*

عاشت مدينة رام الله على مفترق طرق متشعب تاريخياً وسياسياً، وحتى اجتماعياً واقتصادياً، ممّا جعلها تشهد تحولات كان لها دور كبير في تشكيل مركزيتها الحالية. فلمدينة رام الله حكاية ليست طويلة زمانياً مقارنة بالمدن العربية والفلسطينية الأخرى، إذ يمكن القول إنّ هذه المدينة بدأت ترسم حدود جغرافيتها منذ انتقالها من خربة أو قرية مع أول استقرار فيها عام 1550 لعشيرة حدادين، إلى أن جرى إعلان رام الله كمقاطعة من قبل الحكومة التركية عام 1902، لتضمّ آنذاك ثلاثين بلدة تلتف حولها. وفي تتابع متسلسل لذلك، تحوّلت رام الله رسمياً عام 1908 إلى مدينة نتيجة التوزيع الديمغرافي المتغير نسبياً، ولا سيّما بعد استيعابها الأعداد الهائلة من المهاجرين واستقطابها للوافدين والزوّار، إلا أنّ ذلك لم يكن ساعة الهندسة الفعلية التي غيرت من الفضاء المدني للمكان، الذي أسهم الاستعمار في رسمه. ويرمي هذا المقال إلى إبراز حقبة مهملة في تاريخ مدينة رام الله، هي حقبة الحكم الأردني، وذلك بتسليط الضوء على الهندسة الديمغرافية الجديدة التي تلتفتها رام الله بعد النكبة، وما لحقها من تحولات طارئة على عناصر المكان في السياق الاستعماري.

### الهندسة الجديدة

جاء التفاوت المدنيّ الفعليّ الذي لامس رام الله مقارنة بمدن الضفة الغربية الأخرى عقب أكبر موجة هجرة في تاريخها، أي بعدما واجهت فلسطين نكبة عام 1948، وما نتج عنها من تهجير قسريّ للشعب الفلسطيني؛ فقد احتضنت رام الله آلاف المهجّرين منهم لتشهد إثر ذلك إعادة هندسة ديمغرافية مختلفة نوعاً ما عن غيرها من المدن، وخاصة أنّه تبعها تطوّرات وتغييرات كثيرة كسائر المدن العربية والعالمية، بيد أنّ أهمّها كان هو أنّ رام الله والبيرة - وباستثناء غزة - الأكثر تأثراً بالهجرة القسريّة جراء النكبة من بين المدن الفلسطينية، ففي العام 1953، سجّل الإحصاء الأردنيّ للسكان 13,500 نسمة في رام الله، 67% منهم لاجئون.<sup>1</sup> وما لم يُفصح عنه في الأدبيات التي تناولت الموضوع هو أنّ الطرد القسريّ في النكبة كان من أهمّ التحولات التي أدخلتها الحرب على عناصر المكان وعلى فضاءه الجغرافيّ وهيكله الاجتماعيّ ووظيفته السياسيّة والثقافيّة كذلك؛ إذ إنّ نوعيّة المهجّرين الذين لجأوا إلى رام الله أسهموا في تغيير معالم المدينة إثر التوزيع الديمغرافيّ والجغرافيّ لللاجئين، وخاصة بعد أن انقسموا إلى قسمين هما: الأول مسيحيّو اللدّ، الذين أقاموا في منطقة رام الله التحتى ولم يسكنوا المخيمات؛ والآخر مسلموها، الذين أقاموا في المخيمات.

<sup>1</sup> ليزا تراكي. 2010. أمكنة صغيرة وقضايا كبيرة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص 23.

ولعلّ هذا اللجوء يوثق ديناميّة هامة وطارئة على هيكل المدينة الاجتماعيّ ومتأثرة بالأحداث السياسيّة، لا بالطبقيّة الاجتماعيّة التي غالبًا تنشأ في المدن المركزيّة، فهذه العمليّة بحدّ ذاتها هي إعادة بناء ديمغرافيّة جديدة داخل حيّز مدينيّ صغير نسبيًّا مقارنة بالمدن الفلسطينيّة الأخرى، ليصبح التوزيع الطبيعيّ لسكّان المدينة قبل النكبة يختلف تمامًا في تكوينه الاجتماعيّ وليس في طبقيّته فحسب عمّا بعدها، لتحمل رام الله مزيجًا سكّانيًّا وهيكلًا اجتماعيًّا جديدة.

ولوجود الاستعماريّ الصهيونيّ في فلسطين واستعمار المدن الفلسطينيّة الكبرى عام 1948 سبب مباشر في جعل رام الله تمييزًا في هندستها كمدينة رئيسيّة عن سائر المدن الفلسطينيّة بالرغم من عدم احتلالها بصورة مباشرة عام 1948. فقد دخل اللاجئون الفلسطينيّون مدينة رام الله بعد إعلان قيام إسرائيل عام 1948، فأصبحت المدينة تابعة للمملكة الأردنيّة الهاشميّة، وقد وصل إلى رام الله عام 1948 نحو 25 ألف نسمة من المدن يافا واللدّ والرملة وقراها نظرًا لقرب هذه المدن من رام الله، وبقوا في رام الله في مخيّمات مؤقتة لعدّة أيّام، حيث نقلت باصات الجيش الأردنيّ وباصات الأمم المتّحدة الكثير منهم ووزّعهم على مخيّمات عديدة أنشئت لهم، وبقي في رام الله نحو 9 آلاف لاجئ، وكان يُقدّر حينها عدد سكّان رام الله (أي عشية النكبة) بنحو 5 آلاف نسمة<sup>2</sup>.

وبشأن احتلال مدينتيّ اللدّ والرملة، فإنّ تدفّق الأعداد الكبيرة من تيّنك المدينتين إلى رام الله لم يبدأ قبل سقوط المدينتين في يد القوّات الإسرائيليّة<sup>3</sup>. وبناء عليه، ما غاب فعليًّا عن تاريخ مدينة رام الله نوعيّة المهجرين إليها، والذي ممثّل غالبًا في قدوم مسيحيّ اللدّ الذين تهجّروا إلى رام الله، إلّا أنّهم لم يقطنوا في مخيّمات اللجوء، وإمّا اشتروا أراضي في مدينة رام الله وبخاصّة "رام الله التحتي". ففي هذا التغيّر المفقود في تاريخ رام الله يتجلّى التشكّل الجديد والطارئ ما بعد النكبة، أي التغيّر الديمغرافيّ في خمسينيّات القرن الماضي، الذي قام بدور في إعادة ترتيب أوضاع اللاجئين لأنفسهم في حيّز المدينة وإعادة ترتيب البلديّة لهم في الوقت أنفسهم، ومن ثمّ إثبات فاعليّتهم في العمارة والاستثمار التجاريّ، لكن وجود مسيحيّ اللدّ ودورهم غائبان في تاريخ المدينة. فضلًا عن هذا، لا يمكن إنكار التغيّرات الطبقيّة المهمّة التي طرأت على المدينة في فترة الانتداب البريطانيّ، ودور الطبقة الوسطى المهمّ في تغيير معالم المكان والذي أوضحته ليزا تراكي في دراستها "من صنع رام الله"<sup>4</sup>، كما لا يمكن تجاهل التطوّر الذي حدث فيها جرّاء استثمار عائدات المهاجرين فيها، إلّا أنّها بقيت تغيّرات أقلّ بكثافة من تلك التي جرت في حقبة الحكم الأردنيّ، والتي يمكن إجمالها في ثلاث نقاط أساسيّة، أولها: العائدات التي أنعشت المدينة تجاريًّا وخدميًّا إلى حدّ كبير، وبدأت منذ هجرة عدد كبير من سكّان رام الله إلى الأمريكيّتين. الثانية: تعلق بالوافدين إلى المدينة والمهجرين قسريًّا إليها. أمّا الثالثة، فتتمحور في سياسات الأردنّ في فترة تولّيها إدارة الضفّة الغربيّة. وفي هذه النقاط الثلاث، ثمّة حلقة فارغة في تاريخ رام الله، ولها أهميّة في فهم الفضاء المدينيّ والتاريخ الاجتماعيّ لها. فمع بداية عقد الخمسينيّات، أصبح مجتمع المدينة مركزًا رئيسيًّا لقضاء رام الله والذي كان جزءًا من محافظة القدس، واشتمل على أربع وسبعين (74) قرية من بينها أربع عشرة (14) ضُمَّت إليه إثر تعيين خطّ الهدنة عام 1949م، وكانت هذه القرى الـ 14 في الأصل من أعمال قضاء الرملة.

<sup>2</sup>. إبراهيم، نيروز. 2004. رام الله : جغرافيا - تاريخ - حضارة. رام الله: دار الشروق.. ص 200.

<sup>3</sup>. العارف، عارف. 1958. نكبة فلسطين والفردوس المفقود: الجزء الثالث. صيدا: المكتبة العصريّة. ص 612-606.

<sup>4</sup>. تراكي، ليزا. 2013. ورقة بعنوان من صنع رام الله، قدّمت في مؤتمر التحدّيات والاستجابات: إستراتيجيات التوافق والبقاء عند الفلسطينيّين في الوطن والشتات. جمعيّة إنعاش الأسرة - مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطينيّ - المؤتمّر السنويّ السادس

ويُعتبر قضاء رام الله القضاء الفلسطيني الوحيد الذي لم يَغتصب منه الكيان الصهيوني أي قرية حتى عام 1967، لكنّها المدينة التي تَلقت نتائج مشروع الاستعمار الاستيطاني الذي اتّخذ من فلسطين مشروعاً للهيمنة الصهيونية. ففي أوائل الستينيات، ارتقى قضاء رام الله إلى درجة قضاء ثمّ لواء، وقُدّر عدد سكّانها بـ 134,288 وفقاً لتعداد عام 1966. وفي أعقاب تدفّق اللاجئين والوافدين إلى رام الله إبّان الحكم الأردني، تطوّرت المؤسسات المهنية والتعليمية والسياحية فيها، وبدأت باجتذاب أعداد متزايدة من المهنيين وموظفي الحكومة والأونروا وخاصة ممّن امتلكوا الخبرة قبل الهجرة واستغلّوها في مجال العمل في المدينة.

واكتسبت رام الله مكونات الاستقطاب التي تتقبّل مختلف العلاقات والممارسات الاجتماعية، لكونها تُعدّ فضاءً متنوعاً إلى حدّ ما، فقد جمع بين مسيحيين ومسلمين وفلاحين وتمدّنين، وفقراء وأغنياء، أي إنّها اكتسبت مقومات الجذب وإن تَلقت نتائج الهجرة القسرية التي تسبّب فيها الاستعمار الصهيوني بصورة مفاجئة ودون توفير بنية تحتية تستوعب المهجّرين والوافدين. وللمغتربين والزائرين دور مهمّ في التغيّر الملموس الذي شهدته المدينة، فأدّى توافدهم إليها إلى ارتفاع مستواها المعيشي والخدميّ، فضلاً عن زيادة الإقبال على البناء، وتوسّع الأسواق التجارية والفنادق والحدايق العامّة والمدارس، ولا سيّما بعد استثمار المغتربين من أبناء رام الله أموالهم في قطاع التجارة، وعلى وجه التحديد في الحقبة الأردنيّة، لكونها أصبحت محطة متميّزة بعد استعمار المدن الفلسطينيّة الكبرى والساحليّة.

### "عروس الأردن"

لُقبت رام الله في فترة الحكم الأردنيّ بـ "عروس الأردن"، إذ كانت تقام فيها زمن الحكم الأردنيّ مهرجانات فنيّة سنويّة يفتتحها ملك الأردن وبرعايته، لتستقطب الزوّار والوافدين كلّ موسم بعد الإعلان عن برنامج كامل يتضمّن فعاليّات المهرجان. وقد أضفى عليها هذا أهميّة سياسيّة، ففي عدد من الصحف الفلسطينيّة (نحو: "المنار" و "الدفاع" و "فلسطين") التي نشرت أخباراً عن تطوّر حركة السياحة في رام الله أيّام الحكم الأردنيّ عليها، تناولت مهرجانات الصيف التي كانت تقام في المدينة وجاء في الخبر "أصبحت حركة السياحة والاصطياف في أردننا الحبيب مصدراً رئيسياً من مصادر دخله القومي... وبرزت فكرة إقامة هذه المهرجانات عام 1962 وانبثقت لأول مرّة من مدينة رام الله التي أصبحت مَحَجّاً لجماعات المصطافين يؤمّونها من كافّة أرجاء الوطن العربيّ ومن العديد من أقطار الدنيا"<sup>5</sup>. وهناك تحقيق صحفيّ آخر حول رام الله نُشر في صحيفة "الشعب" مَعنُون بـ رام الله عروس المصايف في الأردنّ وُجد بين أوراق أرشيف رام الله المتعلقة بالسياحة. يبدأ بـ "وين.. عا رام الله.. المصيف الأردنيّ الأوّل والأجمل"، ويصف بإسهاب المدينة وحياتها الاجتماعيّة الراقية والنشاط الفنيّ والنشاط الاقتصاديّ والتجاريّ داخل المدينة<sup>6</sup>، وتشهد أغنية سميرة توفيق "وين ع رام الله" التي شاعت في الستينيات على ذلك، ولم يكن من قبيل المصادفة عدم وجود مدينة أخرى في الضفّة الغربيّة تجتذب السيّاح العرب قبل العام 1967 مثل رام الله، فقد ساعد طقسها ومناخها الاجتماعيّ المنفتح في جذب السيّاح، بصرف النظر عن محدوديّة حجمها في ذلك الوقت، علاوة على أنّها أصبحت مركزاً للنشاط السياسيّ بعد النكبة<sup>7</sup>. وقد زاد الاهتمام بالمدينة لاحقاً، فجرّت إنارتها بالفلورسنت سنة 1959 ممّا أكسبها جاذبيّة وجمالاً حتى

<sup>5</sup>. خبر بعنوان "أضواء على مهرجانات المصيف الأوّل بالأردنّ - تطوّر حركة السياحة والاصطياف في المدينة الجميلة". جريدة المنار، 29/7/1966.

<sup>6</sup>. تحقيق صحفيّ عن مدينة رام الله، جريدة الشعب، أرشيف رام الله، خزانة 13، جرار 1.

<sup>7</sup>. تراكي، ليزا. مرجع سابق، ص 30.

أصبحت تضاهي المدن الأوروبية.<sup>8</sup> وبذلك تكون رام الله قد اكتسبت بهيكليتها الجديدة والتطورات التي طرأت عليها طابعًا منفردًا وجماليًا وليبراليًا متميزًا عن سائر المدن الفلسطينية الأخرى قبل أن توصف بالمدينة النيوليبرالية التي أشاعها النقّاد والأكاديميون في الفترة الأخيرة، وتحديدًا الفترة ما بعد الأوسلوية.

أمّا اقتصاديًا، فقد نشرت الصحف الفلسطينية في حقبة الحكم الأردنيّ للضفة أحدَ التحقيقات الصحفية الذي تحدّث عن التطور داخل المدينة في فترة الحكم الأردنيّ، تضمّن الآتي: "لا يمكن للمرء أن يتجاهل رام الله المدينة التجارية فيها مصانع الشوكولاتة والساكر والحلويات والمأكولات والنسيج والحياكة، كذلك تنتشر الورشات الميكانيكية للخراطة والحدادة وصنع الصهاريح التي تُستخدم لشحن البترول من الدول المجاورة إلى الأردنّ وتكاد تكون هذه الصناعة مقتصرة على مدينة رام الله وتتعدّد الشركات التجارية.. والزائر لمدينة رام الله يشاهد بكلّ وضوح النهضة التعليمية في المدينة.."<sup>9</sup> ويدلّل هذا على انتعاش العمل الاقتصاديّ داخل المدينة في تلك الفترة، ممّا يجعلها منطقة جذب لمحيطها. وهكذا أخذت تتركز في رام الله الدوائر الحكومية والمؤسسات والمراكز التجارية والصناعية التي تخدم قرى القضاء وتتركز فيها المعاهد والمؤسسات التعليمية وأهمّها جامعة بير زيت، وبطابعها الخدماتيّ قد جذبت أعدادًا من المهنيين والأطباء والمحامين والصحافيين والطلبة وغيرهم للاستقرار في كنف المدينة والعمل والتعلّم في أرجائها. فوظيفة رام الله الإدارية جعلتها مركز قضاء يحمل اسمها ويقع بين أقضية نابلس والرملة والقدس وأريحا تطوّر نموه تطوّرًا تصاعديًا.<sup>10</sup> ولا شك أنّ هذا يمنحها الاهتمام من قبل المؤسسات المسؤولة عن إدارة وحكم المكان.

لم تكن رام الله -المدينة الأوسلوية- بالرغم من أهميّة التطورات التي أعقبت أوسلو وعودة السلطة الفلسطينية للبلاد من الخارج، وجاءت مركزية رام الله بشكل تدريجيّ كمكان حضريّ نشأ منذ الحكم العثمانيّ، وتوسّع زمن الانتداب البريطانيّ، لتُعاد هندسته في فترة الحكم الأردنيّ، والذي استمرّ لاحقًا حتّى أصبحت بصورتها الحالية. فلكلّ حقبة زمنية في تاريخ المدن الفلسطينية -ومنها رام الله- أحداث وفاعلون أنتجت التغيّرات والديناميات التي تُواكبها، لتضفي عليها أهمّيّتها السياسيّة والاجتماعيّة، وتبني من خلالها فضاءها الخاصّ.

### حكم للمكان ومكان للحكم

لم يكن الانتقال القسريّ خاصًا بالأفراد فحسب، وإمّا شمل كذلك العديد من المؤسسات التي انتقلت إثر نكبة عام 48 إلى رام الله، كالبنيك العربيّ الذي انتقل من القدس إلى رام الله، وهو أكبر مؤسسة مصرفيّة فلسطينيّة منذ ذلك الوقت حتّى اليوم. ولا يمكن إنكار تغيّر معالم المدينة المستعمرة منذ أواخر الحكم العثمانيّ مرورًا بالانتداب البريطانيّ والحكم الأردنيّ حتّى ما وصلت له الآن على مراحل طويلة، أدّت إلى جعلها تُشكّل مركزًا حضريًا وحاضنة لمحيطها، إلا أنّ المدينة بعد أن أصبحت تابعة للملكة الأردنية الهاشمية، بلغ عدد سكّانها نحو 25 ألف نسمة بعد أن كانوا خمسة آلاف، جمعت بين سكّانها الأصليين واللّاجئين من المدن يافا واللّد والرملة وقراها، بقي منهم في رام الله نحو تسعة آلاف لاجئ باتت تدير شؤونهم المؤسساتُ المُقامة في المدينة وتوفّر لهم الخدمات الإدارية وغيرها من المدينة نفسها. وزدّ

<sup>8</sup> نسخة عن ورقة من دائرة بلدية رام الله، أُرشف رام الله، سلّمت بتاريخ 12/3/1960، خزانة 13، جرار 1.

<sup>9</sup> جريدة الشعب، المرجع السابق.

<sup>10</sup> تراكي، ليزا. مرجع سابق. ص 453-454.

على ذلك الاستقرار السياسي الذي شهدته المدينة طوال فترة الحكم الأردني، والذي جعلها مركز استقطاب سياسي بالرغم من التغيير الديمغرافي الطارئ الذي شهدته.

ولم يكن اتجاه الهجرة إلى رام الله فقط، بل قابلتها موجات هجرة منها كذلك إلى خارجها وخارج فلسطين. فقد عاشت رام الله موجات هجرة كبيرة إلى الأمريكيتين وخاصة من الشباب، ابتغاء العمل في الخارج وبدافع تحسين أوضاعهم الاقتصادية، فأخذت أموالهم تتدفق على المدينة ليستثمرها السكّان في شراء الأراضي وبناء العقارات لاستغلالها في السياحة<sup>11</sup>. كذلك أثرت تحويلات المهاجرين لعائلاتهم في رام الله على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما زاد من فرصة التنشيط الاقتصادي للمدينة ودعمها على الصعد كافة، سواء أكان ذلك في المؤسسات أم في المصانع أم في المراكز الثقافية. ولكن مثل ذلك الدخل والاستدخال الغربي للمنتجات الغربية والكفاءات أو حتى بصرف العملات المحولة إلى "الدولار" يهيئ فرصة لفتح رام الله أمام الاقتصاد الأجنبي، بما فيها الثقافة الأجنبية من اللباس والمأكولات وحتى الفكر. ولا يعني هذا أن رام الله باتت المدينة المتروبولية الكبرى، لكن تناميها جاء في ظروف استثنائية جعلها تختلف عن سائر المدن الفلسطينية.

ختاماً؛ ساهمت نكبة العام 1948 في تشكيل مدينة رام الله بالرغم من عدم احتلالها في ذلك الوقت، وأكثر ما ميّز رام الله كمدينة عن سائر المدن الفلسطينية بعد النكبة هو استقبالها لأعداد كبيرة من اللاجئين بعد نكبة العام 1948 تفوق أعداد سكّانها بأضعاف، وهؤلاء بدورهم أعادوا -بصورة أو بأخرى- تشكيل الحيز المدني، وأضفوا عليها الطابع الحضري لتنال عندذاك أهمية سياسية واجتماعية واقتصادية في الأوساط الفلسطينية. وفي حقبة الحكم الأردني، ونتيجة للنكبة، أخذت التحوّلات تتمظهر بصورة سريعة وكبيرة في المكان؛ فعلى الصعيد التحوّلات الاجتماعية باتت تنشأ التركيبة الطبقيّة، أما على الصعيد الاقتصادي فأصبحت المركز الذي يستقطب الاستثمارات المحليّة والأجنبيّة، وعلى الصعيد السياسي جرى اعتمادها مركزاً إدارياً وخدماتياً بحكم جو الاستقرار الذي تحظى به.

\* لوزية بزار؛ كاتبة وباحثة فلسطينية، حاصلة على بكالوريوس الإعلام والعلوم السياسية والماجستير في الدراسات العربية المعاصرة من جامعة بيرزيت.

<sup>11</sup>. أمّنة إبراهيم أبو حجر. 2003. موسوعة المدن والقرى الفلسطينية. عمّان: دار أسامة للنشر ص380.